وذلك دين القيمة

الأستاذ أبو حفص سفيان الجزائري .

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا و من سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له .

و أشهد أنّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

و اشهد أنّ محمدا عبده ورسوله .

أمّا بعد : قال الله تعالى : " **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** "

من المسائل و الأحكام المستخرجة من الآية :

- فيها بيان الغاية الّتي من أجلها خلق الله الخلق ، و هي قوله : " **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ**" ، و هي كقوله : " **و ما خلقت الجنّ و الإنس إلاّ ليعبدون** " ، فحصر الله تعالى هذه الغاية في العبادة بأدق عبارات الحصر و هو الإستثناء قبله نفي .

و أوضح الله تعالى أنّ هذه العبادة مبناها على الأمر ، أمر الله و أمر رسوله ، فلا تكون العبادة مشروعة إلاّ إذا كانت مبناها على الأمر لا على العادات و الأهواء .

- فيها بيان أنّ هذه العبادة لا بدّ أن تكون لله تعالى لا لغيره و ذلك في قوله " **لِيَعْبُدُوا اللَّهَ**" ، فلا يُعبد غيره ، فلا معبود بحق في الوجود إلاّ الله تعالى ، و هذا هو مدلول كلمة التوحيد " لا إله إلاّ الله " المتكوّنة من ركنين : نفي العبودية عمّا سوى الله تعالى و البراءة منها ، و إثبات هذه العبودية لله جلّ و علا .

نستخلص في ضوء ما مرّ من قوله تعالى : " **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ** " ، أنّ عبادتنا لله تعالى لابدّ لها من شرطين ، الأوّل أن تكون مبناها على الأمر أي أمر الله و رسوله ، و الثانية : أن يكون المرء مخلصا لله في عبادته الشرعية .

إذا إختلّ أحد هذين الشرطين تكون هذه العبادة فاسدة ، والأدلة على ذلك أكثر من أن تُحصى ، و هي من المسائل الّتي صارت من الأمور المعلومة عند طلبة العلم

– و قوله تعالى : " **مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** " فيه تأكيد على مسألة إخلاص العبادة لله ، كما فيه أنّ الدّين يجب أن يكون كلّه لله ، و الدّين يشمل الأمور التعبّدية و الأخلاقية كما يشمل المسائل التشريعية ، " **قُلْ إِنَّ صَلاتِي و نُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** "

– و قوله : " حنفاء " الحنف هو الميل عن الأديان كلّها إلى دين الإسلام ، وهذا يتضمّن عقيدة البراء من جميع الأديان ومن أهلها ، فلا يكفي في العبادة أن يكون المسلم ملتزما بما شرع الله إلاّ إذا أضاف إلى ذلك البراءة من الشرك والمشركين، جاء في صحيح مسلم من حديث إبن عمر رضي الله عنهما أنّ رسول الله صلّى الله عليه و سلّم قال : من قال لا إله إلاّ الله و كفر بما يُعبد من دون الله حرُم ماله و دمه و حسابه على الله " ، قال الإمام محمد بن عبد الوهاب في مسائله من كتاب التوحيد : و هذا من أعظم ما يبيّن معنى لا إله إلاّ الله ، فإنّه لم يجعل التلفّظ بها عاصما للدّم و المال ، بل و لا معرفة معناها مع لفظها ، بل و لا الإقرار بذلك ، بل و لا كونه يدعو إلاّ الله وحده لا شريك له ، بل لا يحرم ماله و دمه حتّى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله ، فإن شكّ أو توقف لم يحرم ماله و دمه ، فيا لها من مسألة ما أعظمها و أجلّها ، و يا له من بيان ما أوضحه و حجّة ما أقطعها للمنازع . إنتهى .

و منه أنه يجب على المسلم أن يولي إهتمامه بمسألة الولاء و البراء عمليا سلوكيا، فكم نرى ممن يزعم أنّه من المسلمين يوالي أعداء الله و رسوله على إخوانه المسلمين ، فإنّ مثل هذا الولاء للكفار على المسلمين هو من الكفر الأكبر المخرج من الملّة فليحذر المرء أن يحبط علمه و هو لا يدري .

– و قوله : " **وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ** " ، فالصّلاة هي من أفضل العبادات البدنية، بل هي من أفضل العبادات على الإطلاق بعد التوحيد ، عبادة عنوانها السكينة والطمأنينة، ومناجاة مع ربّ البريّة ، وهي العبادة الّتي أجمع الصحابة على أنّ من تركها كان كافرا مصداقا لقوله عليه الصّلاة و السّلام : بين الرجل و بين الشرك و الكفر ترك الصّلاة . رواه مسلم من طريق جابر بن عبد الله .

و أمّا الزكاة فهي من أفضل العبادات المالية ، و هي إخراج مقدار معيّن من مال معيّن لأصناف معيّنين في وقت معيّن إذا بلغ ذاك المال نصابا معيّنا .

و من هذه الآية استنبط الإمام الشافعي أنّ الأعمال من مسمّى الإيمان ، و حكى رحمه الله تعالى الإجماع على المسألة هذه ، و لم يُخالف فيها إلاّ المرجئة والجهمية الّذين اتّفقوا في إخراج الأعمال عن مسمّى الإيمان .

- قوله تعالى : "**وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** " أي هذا الدّين المبني على توحيد لله تعالى والانقياد لشرعه في جميع مناحي الحياة – عبادة و سلوكا و حكما و تشريعا – والالتزام بما أمر به و إخلاص الأعمال له ، و البراءة من الكفر وأهله ، هذا الدّين دين قيّم مستقيم لا إعوجاج فيه ، فهو دين لا يقبل المساومات و لا التنازلات على الثوابت الشرعية ، هو دين كامل شامل ، قال الله تعالى : " **اليوم أكملت لكم دينكم ، و أتممت عليكم نعمتي ، و رضيت لكم الإسلام دينا** "

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّ رجلا من اليهود قال له (و في رواية : أنّ أناسا من اليهود قالوا) : يا أمير المؤمنين ، آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا معشر اليهود نزلت لأتّخذنا ذلك اليوم عيدا . قال : أيّ آية ؟. قال : " اليوم أكملت لكم دينكم ، و أتممت عليكم نعمتي ، و رضيت لكم الإسلام دينا " . قال عمر : قد عرفنا ذلك اليوم و المكان الّذي نزلت فيه على النبيّ صلّى الله عليه و سلّم ، و هو قائم بعرفة يوم الجمعة (و إنّا والله بعرفة).

إنّ الذلّ الّذي تعيشه الأمّة سببه هو بعدها عن دينها القيّم ، " إنّ الله أعزّنا بالإسلام فمن يبتغي العزّة في غير الإسلام أذلّه الله " كذا قال عمر الفاروق رضي الله عنه، كيف ونحن تركنا ديننا و تشبّثنا بقوانين مستوردة مناقضة لشريعة الله تعالى ، و كيف ونحن ربطنا مصيرنا بمصير الغرب الحاقد الكافر ، كيف و نحن جعلنا الغرب الكافر هو يقرّر لمصيرنا ، فوالله لن يعود لهذه الأمّة مجدها و عزّها إلاّ إذا عادت إلى دينها حكاما و محكومين ، أفرادا و جماعات ، عزّنا قدّره الله تعالى في ديننا .